من قضايا البلاغة والنقد
الجزالة والرقة

بقلم الدكتور/عبد الله على محمد حسن
مدرس البلاغة والنقد

الحمد لله رب العالمين ـ خلق الانسان ـ علمه البيان ـ وأعطاه الحكمة وفصل الخطاب ـ اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد امام البلغاء وسيد الفصحاء ـ وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم الى يوم الدين ... وبعد

فمن الالفاظ التى وردت على لسان النقاد والعلماء ـ الجزالة والرقة حين تحدثوا عن المقاييس الجمالية للأسلوب سواء كان شعرا أم نثرا . واختلطت الالفاظ اختلاطا واضحا حين قرنت بغيرها كالجزالة والرصانة والقوة والخشونة ـ والرقة والسهولة والعذوبة والليونة والسلاسة والدماثة .. ولم نقف على المقصود بتلك الالفاظ الا من خلال اشارات قليلة مبهمة غير واضحة ولا محددة فحاولت فى هذا البحث أن أحدد المقصود بكل من الجزالة والرقة ووضع مفهوم لكل منهما مع تطبيقات عملية من القرآن الكريم وأمهات الشعر العربى ـ مسترشدا بما كتبه علماؤنا الأفاضل ـ متتبعا التطور التاريخى لهذه الالفاظ محاولا تحديد وتبيين وتوضيح المقصود بالجزالة والرقة ولا أدعى السبق فان كتب الأدب والبلاغة قد وردت فيها هذه الكلمات كثيرا ولكن اخراج الموضوع متكاملا وتحديد معالمه هو ما أصبو اليه وعلى الله قصد السبيل .

المعنى اللغوى للجزالة والرقة :

الجزالة : جاء فى لسان العرب - فى حديث موعظة النساء قالت امرأة منهن جزلة ، أى تامة الخلق - قال ويجوز أن تكون ذات كلام جزل - أى قوى شديد - واللفظ الجزل بخلاف الركيك ورجل جزل ثقف عاقل أصيل الرأى (١)

وفى أساس البلاغة - من المجاز - رجل جزل ذو عقل ورأى وقد جزل وما أبين الجزالة وقد استجزلت رأيك فى هذا الأمر (٢)

وفى مختار الصحاح - اللفظ الجزل ضد الركيك (٣)

الرقة : الرقيق نقيض الغليظ والتحسين والرقة ضد الغلظ والرقة تعنى اللين وفى الحديث · أهل اليمن هم أرق قلوبا وترقرق - جرى جريا سهلا وترقرق الشىء تلألأ - وترقيق الكلام تحسينه وفى المثل - عن صبوح ترقق - يقول ترقق كلامك وتلطفه لتوجب الصبوح - قال رجل لضيف له غبقه فرقق الرجل كلامه ليصبحه - أى ليسقيه اللبن - وحقيقته أن الغرض الذى يقصده كأن عليه مايستره فيريد أن يجعله رقيقا شفافا ينم عما وراءه (٤) وفى مختار الصحاح ترقيق الكلام تحسينه (٥)

والتفسير اللغوى للجزالة والرقة - يقترب اقترابا شديدا من التعريفات التى حددها علماء البلاغة والنقد - ذلك أن ابن منظور بين

---

(١) لسان العرب ص ٦١٨ مادة جزل
(٢) أساسى البلاغة ص ٥٩ مادة جزل
(٣) مختار الصحاح ص ١٠٣ مادة جزء
(٤) لسان العرب مادة رقق بتصرف
(٥) مختار الصحاح ص ٢٥٣ مادة رفق

أن الكلام الجزل هو القوى الشديد وهذا ما بينه العلمـاء أنه يستعمل فى المواقف الصعبة التى تحتاج الى شدة وقوة كمواطن الحروب والتهديد والوعيد والانذار ومواطن نزول العذاب وغير ذلك ممـا تقتضيه طبيعة الموضوع ـ وتعنى كذلك الأصالة ـ بمعنى التعبير المحكم القوى البنـاء المتماسك الرصين العبارة ـ وعبارة الصحاح اللفظ الجزل ضد الركيك ـ وهذا مابينه علمـاء البلاغة بأن اللفظ الركيك المفكك لايدخل ضـمن البلاغة فى شىء والجزاله ضد ذلك فهى اللفظ القـوى الرصين الواضح المؤثر المعبر عن المعنى تمام التعبير ٠

والتعريف اللغوى للرقة ـ انتزع منه علماء البـلاغة بيان معنى الرقة وأنها اللفظ السلس العذب السهل الذى يأتى فى مواطن الغـزل والعتـاب والاستعطاف والوصف وخطـاب النبيين والمنيبين والتـائبين وخطاب أهل الجنة وغير ذلك ـ وسوف تتضح معالم الموضوع من خلال استعراضنا لآراء العلماء ثم ترجيح مانراه راجحا فى هذا الموضوع ٠

المرزوقى (★) وعمود الشعر :

يقول المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة لأبى تمام ـ انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واسـتقامته والاصـابة فى الوصف ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ـ ولكل باب منها معيار ـ ثم بين أن جزالة اللفظ واسـتقامته عيارها الطبع والرواية والاستعمال ٠

فالمرزوقى جعل الجزالة والرقة عمودا من اعمدة الشعر التى يعتمد

(★) هو أحمد بن محمـد بن الحسن المرزوقى الأصـبهانى توفى فى ذى الحجة ٤٢١هـ ١٠٣٠م ترجمة ياقوت فى ارشاد الأريب

عليها وكذلك هى عمود أساسى من أعمدة النثر تقتضيها طبيعة الموضوع ـ ذلك أن الالفاظ حين يسجل بها الأديب مشاعره فانه يعبر عن طبيعة متأصلة فى نفسه واذا كان الناس يختلفون عنفا وعطفا وقوة ورقة فكل انسان يحس من الخواطر والمعانى وفق مايتماثل مع طبعه ومنحاه فاذا نحى الى القوة والأسر فلأن خواطره من الصلابة والتماسك بحيث تنحو به منحى الجزالة واذا انحدر تعبيره سلسا عذبا فلأن مشاعره عذبه تنحو به منحى الرقة ـ واختلاف المشاعر هو الذى يحتم على الشاعر أو الكاتب أن ينوع بين الجزالة والرقة (٦) فلا عجب اذن أن يوكن المرزوقى أول من نبه الى أن الجزالة والرقة عمود أساسى من أعمدة الشعر لأن طبيعة الموضوع هى التى تفرض الجزالة أو الرقة أو اجتماعهما معا ـ والمراد باللفظ عند المرزوقى هو اللفظ فى حال تركيبه وليست الالفاظ المفردة لأن اللفظ ليس له خاصية فى ذاته وانما اللفظ يكتسب الخاصية ـ الرقة أو الجزالة ـ من خلال التركيب والاستعمال وطبيعة الموضوع فالجزالة والرقة صفة اعتبارية وليست صفة ذاتية وانما يمكن أن يكون اللفظ الواحد فى مكان قويا معبرا موحيا مؤثرا وفى مكان آخر ركيكا ضعيفا لا يؤدى الهدف المطلوب من الايحاء والتأثير وانما يجىء قلقا نابيا قد أفسد المعنى .

وسأضرب لك مثلا يشهد بصحة ماذكرته وهو أنه قد جاءت لفظه واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة وفى الشعر ركيكة فاترة التركيب فيها هذين الوصفين الضدين أما الآية فهى قوله تعالى : « فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم

---

(٦) البيان القرآنى ـ دكتور محمد رجب البيومى ص٣٣ ـ ٣٤

كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لايستحى من الحق » (٧) وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

هذا البيت من أبيات المعانى الشريفة الا أن لفظة - تؤذى - قد جاءت فيه وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها - وحسن موقعها فى تركيب الآية (٨) ذلك ان المروءة لايمكن أن تؤذى صاحبها أبدا لأن المعروف لايضيع بين الله والناس فجاءت لفظة - تؤذى - نابية وقلقة ومؤثرة على المعنى بالسلب لا بالايجاب من هذا يتضح أن المرزوقى بين أن الجزالة ترجع الى الاسلوب وليس الى اللفظ المفرد أى تعود الجزالة والرقة الى المعنى لذلك قال حين تحدث عن المعنى - فطلبوا المعانى المعجبة من خواص أماكنها وانتزعوها جزلة عذبة ولأجل وضوح المعنى قابلوا الجزالة مرة بالقوة وأخرى بالتماسك وقابلوا الرقة مرة بالسهولة ومرة بالليونة وأخرى بالسلاسة وكانوا يجتنبون الركاكة والضعف والتعقيد والغموض .

المعنى الجامع للجزالة والرقة :

فى عصرنا الحديث - استطاع الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور مسترشدا برأى المرزوقى - استطاع أن يحدد ملامح الجزالة والرقة فقال - الجزالة كون الالفاظ التى يأتى بها البليغ أو الشاعر الفاظا متعارفة فى استعمال الأدباء والبلغاء سالمة من ضعف التأليف ومن أثر ضعف التفكير ومن التكلف ومما هو مستكره فى السمع عند النطق

---

(٧) الأحزاب ٥٣ .

(٨) المثل السائر ص ٦٥ .

بالكلمة او الكلام - فهذه الجزالة صفة مدح واذا قابلوا الجزالة بالرقة فانما يريدون بها نسج الكلام على منوال القدماء فى الشدة والقوة كقول أشجع السلمى فى الرشيد :

وعلى عدوك باين عم محمد رصدان ضوء الشمس والاظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا سلت عليه سيوفك الاحلام

والمراد بالرقة : نسجه على منوال المحدثين فى اللين والظرف وأظهر مثال جمع بين هذين الوصفين قول جميل

ألا أيها النوام ويحكم هبو أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

وقد تقال الجزالة فى هذا الاطلاق على الكلام الذى يصدر فى أغراض تناسبها الشدة كالرثاء والحماسة وتقال الرقة على كلام فى أغراض يناسبها اللين واللطافة كالنسيب والزهريات والمدح (٩) ونظرة المرزوقى الى الجزالة والرقة وانها ليست خاصة بالالفاظ وانما الجزالة موضع وتركيب تتفق مع نظرة عبد القاهر الجرجانى حين قال - فصل فى تحقيق القول فى الفصاحة والبيان والبراعة وما شاكل ذلك ومعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات وسائر مايجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين (١٠) ثم بين أن الالفاظ لا تتفاضل من حيث هى الفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة وأن الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة اللفظة لمعنى التى تليها ومما يشهد لذلك أن الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم

---

(٩) شرح لمقدمة الآدبية - محمد الطاهر بن عاشور ص٧٠
(١٠) دلائل الاعجاز ص ٤٤ .

تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

فان لها فى هذا المكان مالا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها فى بيت أبى تمام

يادهر قوم من اخدعيك فقد أضججت هذا الانام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (١١)

والحق مع الامام فى هذا النقد البارع حيث ان المعنى اللغوى يبين أن الليت هو صفح العنق وقيل أدنى صفحتى العنق عليهما ينحدر القرطان - والآخدعان عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا (١٢) وهذا المعنى تماما لما يهدف اليه الشاعر فى البيت الأول حيث أن الشاعر يتغزل فى محبوبته - ريا - وكيف أنه حين مر بحيها جاشت عواطفه وهاجت ذكرياته ونتيجة لذلك تلفت نحو الحى والقافلة تسير حتى نسى نفسه لدرجة أن صفحتى عنقه أصيبتا بالوجع الشديد من شدة تلفته نحو حى محبوبته - فجزالة اللفظ هنا جاءته من حيث مواءمته للموضوع ولا توجد كلمة أخرى تسد مسد ذلك اللفظ - أما أبو تمام فقد حاول أن يستعير لفظ الأخدع للدهر ولكن لامواءمة ولا مناسبة فى تلك الاستعارة اذن فاللفظ اكتسب الجزالة أو الركاكة من الموضوع ذاته وليس للفظ فى حد ذاته هذه الخاصية وفى النهاية يصل عبد القاهر الى غرضه حين قال - فلو كانت الكلمة اذا حسنت ، حسنت من حيث

---

(١١) دلائل الاعجاز ص ٤٦ - ٤٧ .

هى لفظ واذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون اسلبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم لما اختلف بها الحال ولكانت اما أن تحسن أبدا أو لاتحسن أبدا (١٣)

وكون المرزوقى هو الذى جعل جزالة اللفظ واستقامته من اعمدة الشعر حفز ذلك كثيرا من المحدثين ليفسروا ماعناه المرزوقى من هؤلاء الدكتور حفنى محمد شرف حيث بين أن المراد بالجزالة - كون الالفاظ التى يأتى بها المتكلم البليغ سالمة من ركاكة المعنى ومن ضعف التأليف ومن التكلف عرية عن الاستكراه أى المراد فصاحتها وبعدها عن التنافر والثقل ومن ثم عابوا على الأعشى قوله

لقد غدوت الى الحانوت يتبعنى شاو مثل شلول شلشل شول (١٤)

لأن الفاظ العجز بمعنى واحد وهو الخفيف فى العمل - واذا قابلوا الجزالة بالرقة فانما يريدون نسج الكلام على منوال القدماء فى الشدة والقوة ويريدون بالرقة نسجه على منوال المحدثين وأظهر مثال جمع الجزالة والرقة قول جميل ٠

ألا أيها النوام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فصدر البيت عربى جزل وعجزه مخنث رقيق (١٥) ثم ينقل عن الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور دون أن يشير الى المصدر قوله والجزالة فى هذا كله من صفات الالفاظ باعتبارها أوعية المعانى ويظهر تصرف

---

(١٢) لسان العرب ص ١١١٤ مادة خدع ، ص ٤١١١ مادة ليت ٠
(١٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨ ٠
(١٤) النقد الأدبى عند العرب ص ٤٣٠ دكتور حفنى شرف ٠
(١٥) النقد الأدبى عند العرب ص ٤٣٠ دكتور حفنى شرف ٠

البليغ فى صناعتها بالخصوص فى صوغه المعانى التى يصوغها فى نفسه من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية وأنواع الصور البلاغية - وأما المعانى الوضعية فتأتى بالطبع حسب سياق الكلام تأتى الالفاظ تبعا للمعانى (١٦)

الجزالة والرقة عند كل من

١ - الحسن بن سهل العسكرى :

حاول أبو هلال العسكرى أن يضع قاعدة نقدية لمجيد من الكلام وجعل أساس هذه القاعدة - الجزالة والرقة فقال - أجود الكلام مايكون جزلا سهلا لاينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه ولا يكون مكدودا مستكرها ومتوعرا متقعرا ويكون بريئا من الغثاثة عاريا من الرثاثة والكلام اذا كان لفظه غثا ومعرضه رثا كان مردودا ولو احتوى على أجل معنى وأنبله وأفضله (١٧) فالعسكرى يشترط لجزالة الكلام ان يكون سهلا أى ألفاظه سهلة النطق بعيدة عن التكلف والتشدق والوعورة وذلك حتى لاينغلق معناه ويستبهم مغزاه حتى لايكون كالطلاسم لا ينبىء عن معنى ولا يحرك احساسا ويقسم الجزل من الكلام الى قسمين قسم مقبول تقبله النفس لما فيه من القوة والايحاء والتأثير وقسم غير مقبول لأن الفاظه مبهمه ومعانيه غامضة - والأدب ماهو الا امتاع واقناع فالغريب فيه ليس ممتعا ولا مقنعا .

---

(١٦) شرح المقدمة الأدبية محمد الطاهر بن عاشور ص٧٠ والنقد الأدبى عند العرب دكتور حفنى محمد شرف ص٤٣٠ .

(١٧) الصناعتين ص٧٣ تحقيق على البجاوى - طبعة البابى الحلبى .

القسم الأول :

الجزل الجيد بينه بقوله - فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والسهولة والرصانة مع السلامة والنصاعة وسلم من حيف التأليف وبعد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ

ثم يعرف الجزل بقوله - وأما الجزل المختار من الكلام فهو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها ومن الجزل الجيد المختار قول مسلم

وردن رواق الفضل فضل بن خالد
فحط الثناء الجزل ناثله الجزل
بكف أبى العباس يستمطر الغنى
وتستنزل النعمى ويسترعف النصل
ويستعطف الأمر الأبى بحزمه
اذا الأمر لم يعطفه نقض ولافتل (١٨)

وقول النابغة :

ولست بمستبق أخا لاتلمه على شعث أى الرجال المهذب

القسم الثانى :

عرفه بقوله هو القبيح الذى ينبغى ترك استعماله ومثل له بقول تأبط شرا :

لما سمعت العوض تدعو تنفرت
عصافير رأس من نوى موائنا

---

(١٨) الصناعتين ص ٧٣ - ٧٤ .

وحشحشت مشعوف الفؤاد فراعنى

أناس بفيفان فمزت القرائنا

فأدبرت لا ينجو نجائى نقنق

يبادر فرخيه شمالا وداجنا

أزج زلوج هز رفى يطير عفاؤه

اذا استدرج الفيفاء مد المغابنا

فهذا من الجزل البغيض الجلف الفاسد النسج القبيح الرصف الذى ينبغى أن يتجنب مثله(١٩) ٠

صحيح أن ألفاظ هذه الأبيات جزله قوية ولكنها غريبة حتى فى العصر الجاهلى صعبة الألفاظ لا تقال الا من أمثال تأبط شرا الذى عاش مع الوحوش طريدا فى الصحراء فجاءت ألفاظه تمثل بيئته وتفكيره ولكنها غريبة عنا ولكى نتدبر ما يريد أن يقوله تأبط شرا نفسر المعانى اللغوية حتى نستطيع أن نفهم ولو بعض الفهم ٠

العرض - اسم قبيلة من قبائل العرب - عصفور الرأس - قطيعه - بالتصغير - من الدماغ تحت مقدمة تفصل بينهما جلبدة ٠ عوائن أى موضع - الفيفان موضع بالبادية - القرائن جبال معروفة - الحص أى شدة العدو فى سرعة - الهذروف أى السريع - العفاء أى الغبار - الفيفاء أى الفازة التى لا ماء فيها مع استواء وسعة - والغابن أى الآباط وكل ما ثنيت عليه فخذك فهو مغبن - أزج أى مسرع فى مشيته ومثله زلوج - الهذارف أى الخفيف السريع والزفزفة أى السرعة والهزف أى الجافى من الظبيان والبذ أى السبق لو كانت الجزالة مجرد قعقعة ألفاظ

---

(١٩) الصناعتين ص ٧٤ ٠

وشدة رنين والاتيان بالغريب لكانت هذه الأبيات . ولكن الجزالة تعنى قوة اللفظ مع سهولة مبناه وافصاح معناه وتأثيره فى اسامع وتعبيره عن صدق مشاعر قائله - فهذه الأبيات من الجزل الردىء حد الذى يجب أن يجتنب وعلى حد قول العسكرى (غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه الا بكد ويستفصحونه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسية غريبة ويستحقرون الكلام اذا رأوه سهلا عذبا حلوا ولم يعلموا أن السهل أمعن جانبا وأعز مطلبا وهو أحسن موقعا وأعذب مستمعا)(٢٠١) .

ركز أبو هلال على أمور منها البعد عن التعقيد وسهولة الألفاظ وافهام المعنى والبعد عن الغريب وسلامة التركيب وهذه الأمور فى مجموعها هى ما اتضحت بعد ذلك فى علوم البلاغة بفصاحة الكلمة والكلام

ولقد فتح أبو هلال الباب أمام ابن الأثير لكى يحدد معالم الجزالة والرقة فى وضوح تام .

(ب) اتضاح الرؤية عند ضياء الدين بن الأثير

تحدث ضياء الدين بن الأثير عن الجزالة والرقة حديثا علميا منظما وهو فى نظرى أول من وفى هذا الموضوع حقه حيث عرفه التعريف العلمى السليم وضرب الأمثلة وبين المواطن التى يكون فيها الأسلوب جزلا قويا والمواطن التى يكون فيها رقيقا عذبا وصور فى ذلك عن ذوق يتفهم الطعوم الجمالية الأخاذة .

---

(٢٠١) الصناعتين ص ٦٦ .

تعريف الجزالة والرقة :

قال - لست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع ولست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا ضعيفا . وانما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس(٢١) الى هنا بكاد يتفق ابن الأثير مع العسكرى فى هذا التعريف الا أن الصورة اتضحت عند ابن الأثير حين بين المواطن التى يرد فيها كلا من الأسلوبين .

مواطن الجزالة والرقة :

فالجزل منها يستعمل فى مواطن الحروب وقوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فانه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وغير ذلك (٢٢) .

بعد ذلك نستطيع أن نقول أن ابن الأثير قد فتح المجال لأن نضع بعض المقاييس الجمالية للأسلوب - ذلك أن لكل موطن أسلوب معين يعبر عن الهدف أصدق تعبير ويصور احساس الأديب ويؤثر فى المتلقى ما بين رغبة ورهبة وشوق وحنان - ومودة واستعطاف ونفور وكراهية وغيرذلك مما يجيش فى كوامن النفس البشرية ولقد لمس ابن الأثير هذا المعنى حين قال متحدثا عن الجزالة انظر الى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فانك لاترى شيئا من ذلك وحشى الألفاظ ولا متوعرا (٢٣) فالألفاظ فى هذه المواطن تنزل كالصاعقة المزمجرة لأنها انذار ووعيد وبيان وشرح

---

(٢١) المثل السائر ص ٦٥ .
(٢٢) المثل السائر ص ٦٥ .

لغيبيات لابد أن تتضح أمامهم فهى كالحديد الملحمى لتنبه من يسمعها وتشد كيانه وتؤثر فى وجدانه ليعقل ما ألقى اليه وسنضرب أمثلة تحليلية فى آخر البحث تدلل على ذلك . ولمس ابن الأثير أسلوب الرقة فقال « ثم انظر الى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات فى خطاب الأنبياء وخطاب النبيين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى »(٢٤) فى ذلك الأسلوب تجد الحنو والعطف والرقة والعذوبة .

مقاييس الجزالة والرقة فى الشعر :

وضعوا مقاييس ومواصفات لكل نوع من أنواع الشعر فمن المعروف أن من أغراض الشعر - الغزل والعتاب والاعتذار والفخر والحماسة والهجاء وغير ذلك - وكل نوع من هذه الأنواع له أسلوب معين فمن المقاييس الجمالية للنسيب (أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعانى سهلا غير كز ولا غامض وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الابشار رطب المكسر شفاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرصين) (٢٥) وأدلى المرزبانى فى موشحه بدلوه فقال المذهب فى الغزل انما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة واستعمال الألفاظ المستعذبة المقبولة غير المستكرهة فان كانت جاسية مستوخمة كان ذلك عيبا(٢٦) وضرب ابن الأثير مثلا لذلك النوع فقال ورد للعرب فى جانب الرقة من الأشعار ما يكاد يذوب لرقته قول الشاعر :

أقول لصاحبى والعيس تهوى

بنا بين المغيضة فالضمار

---

(٢٤) المثل السائر ص ٦٥ .
(٢٥) العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١١٦ .
(٢٦) الموشح للمرزبانى ص ٢٠٤ .

تمتـع من شـــميم عرار نجـد
فمـا بعـد العشـية من عـرار
ألا يا حبـــذا نفحـــات نجـد
وريا روضـــة غب القطـــار
وأهلك اذ يحـــل الحى نجـــدا
وأنت عـلى زمانك غـير زار
شهور ينقضـين وما شـعرنا
بأنصـــاف نهـن ولا سرار
فأما ليلهـن فخـير ليـــل
وأطيب ما يكون من النهـار

ومما ترقص الأسماع له ويرن على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية فى محبوبته من جرمه :

بنفسى من لو مر بـرد بنـــانه
على كبـدى كانت شـــفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبتـه
فلا هو يعطينى ولا أنا سـائله

واذا كان هذا قول ساكن فى الفلاة لا يرى الا شيحه وقيصومه ولا يأكل الا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا وارفه يتعاطون وحشى الالفاظ .

العبارات :

ابن الأثير هنا يبين أن الشاعر الذى سكن البادية وعاش فى الفلاة بعيدا عن المدنية والحضارة حينما تغزل صدر عن نفس شـــفافة وقلب

محب فجاء أسلوبه صدى لما فى نفسه من احساس خرجت صافية لاتعقيد فيها ولا غموض - كان الأجدر - بمن سكنوا المدن ووجدوا سعة فى العيش أن يرق أسلوبهم ويشف عما هم فيه من مدنية وحضارة أما أن يتعمدوا الى الالفاظ الجاثية الغليظة ويعبروا بها عن خلجات القلوب فان ذلك مما يعاب به الكاتب أو الشاعر وانما يجب أن ينحدر الأسلوب فى الغزل الى الرقة المحضة وعلى حد قول - أبى تمام فى وصيته للبحترى - فان أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق والتعلل باستشفاف النسائم وغناء الحمائم (٢٧) وقد وصف ابن الأثير شعر أبى الطيب المتنبى فقال - اذا تأملت شعره وجدته كالماء السلسبيل رقة الفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه .

وهكذا قس بقية الأغراض فان لكل مقام مقال ولكل نوع من الكلام أسلوب ينحدر به ناحية الرقة كالغزل والعتاب والاستعطاف أو يميل به ناحية الجزالة كالفخر والوعد والوعيد والحماسة - وضرب ابن الأثير مثلا للجزالة فقال ومن جزل كلامهم وعلى ماتراه من السلاسة والعذوبة ألا ترى الى هذه الأبيات للسموءل بن عاديا وهى :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت بها ان الأكرمين قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

---

(٢٧) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص١٥١ - العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١١٤ .

وأيامنا مشهودة فى عدونا لها غرر مشهورة وحجول
معودة الابل نصالها فتغمد حتى يستباح فتيل

اذا نظرنا الى ماتضمنته من الجزالة خلناها زبرا من الحديد وهى مع ذلك سهلة مستعذبة غير فظة ولا غليظة (٢٨)

وتعليق ابن الأثير على هذه الأبيات يوضح بجلاء تام أن الجزالة جزالة موضوع حيث ان الموضوع فخر من الشاعر واعتزاز بقومه وتخليد لشجاعتهم ولمواقفهم فى الحروب ومع هذه القوة تجد الألفاظ سهلة مستعذبة واضحة لاغموض فيها ولا تعقيد .

ملاحظات أبداها ابن الأثير

(أ) التصوير والتشخيص :

حين تحدث عن الجزالة والرقة وبين أنها تصور وتشخص وترغب وترهب وتجعل النفس الانسانية تعايش الحدث المصور لها معايشة تجمع بين التأثر والاقتناع فيقول : اعلم أن الالفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالالفاظ الجزلة تتخيل الى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق ولطافة - ولهذا ترى الفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد وترى الفاظ البحترى كأنها نساء عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى (٢٩) اذا كان ابن الأثير يشير الى القوة بالنسبة للالفاظ الجزلة والسهولة بالنسبة للرقة فاننا لانقبل حكمه على الاطلاق فى شعر كل من أبى تمام والبحترى

---

(٢٨) المثل السائر ص ٦٦ - ٦٧ .
(٢٩) المثل السائر ص ٦٩ .

لأن الشاعر حين يستخدم الفاظه فانها لاتسير على وتيرة واحدة جزالة أو رقة وشدة وليونه وانما طبيعة الموضوع هى التى تفرض الالفاظ التى تعبر عن المعنى المراد - لذلك ينبغى أن يكون حكمنا على اللفظية مبنيا على مدى توفيقهافى التعبير عن احساس الشاعر أو الكاتب وملاءمتها للسياق وتفاعلها مع غيرها من الالفاظ - لذلك حين نتحدث عن الجزالة والرقة لا نعنى الكلمة المفردة لأن الكلمة الواحدة لايمكن الا أن توحى بالمعانى اللغوية البحتة - ذلك فى حال افرادها - وانما تستمد الكلمة حياتها من خلال وجودها فى سياق خاص واتصال ببقية أجزاء التعبير تتفاعل معه وتتأثر به وتؤثر فيه

(ب) الوحشى من الالفاظ :

بين أن الغريب من الالفاظ هو الذى يثقل على السمع ومعناه غريب لايبين ولا يفصح فقال - لا تظن أن الوحشى من الألفاظ ماتكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذى يقل استعماله فتارة يخف على سمعك ولاتجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك فى اللفظ عيبان أحدهما أنه غريب لايستعمل والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاعته وغلاظته وهو الذى يسمى الوحشى الغليظ ويسمى أيضا المتوعر ومثاله قول أبى تمام ٠

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت

عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة اطلخم من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين فى أنها

غريبة وأنهـــا غليظة فى الســـمع كـــريهة على الذوق وكذلك لفظة دماريسا (٣٠)

(ج) الهدف من الأدب :

الهدف هو البيان والتأثير والاقناع والامتاع ولا يتأتى هذا الا اذا جاء التعبير عذبا مؤثرا موحيا معبرا عن الموضوع لذلك شهد ابن الأثير حملة قوية على مدعى الأدب من الكتاب والشعراء فقال : قد رأيت جماعة من مدعى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذى يعز فهمه ويبعد متنـــاوله اذا رأوا كلاما وحشيا غامض الالفـــاظ يعجبـــون به ويصفونه بالفصاحة وهـــو بالضد من ذلك لأن الفصـــاحة هى الظهـــور والبيان لا الغموض والخفـــاء (٣١) وكأن ابن الأثير يشير الى مايحدث اليوم من أصحاب السريالية والرومانسية المفـرقة فى الأحـــلام ومدعى الشعر وما يسمى بالشعر الحر حيث يحملون الألفـاظ ويغـرقون فى الخيال وكأنهم يتعمدون التعمية لتكون طلاسم لاتفهم غرضا ولا تنبىء عن معنى - وان كانت هذه ليست دعوى جديدة فلقد وجد من القديم من يقول كلاما غامضا لايفهم الناس منه شيئا وانما يعمى عليهم الأمور ظنا منه أن ذلك من الفصاحة وماهو من البـــلاغة فى شىء فلقد روى- ان بعض الأمراء قد اعتلت أمه فكتب رقاعا وطرحها فى المسجد الجـــامع بمدينة السلام - حين امرؤ ورعى دعا لامرأة انقحله مقسئنه قد منيت بأكل الطرموق فأصابها منأجله الاستمصال أن يمنالله عليها بالاطرغراش والابرغشاش - فكل من قرأ رقعته دعا عليها ولعنه ولعن أمه (٣٢)

---

(٣٠) المثل السائر ص ٦٥ .
(٣١) المثل السائر ص ٣٥ .
(٣٢) الصناعتين ص ٥٢ .

ولكى نفهم غثاثة هذا الكلام نشرح المعانى اللغوية حتى يمكن أن تفك الطلاسم - الطرموق أى الطين - الاستمصال أى الاسهال - وأطرغشن وأبرغشن أى برأ وشفى - وبعد - ألست معى فى أن ابن الأثير يكاد يكون أول من فسر الجزالة والرقة تفسيرا علميا دقيقا وضرب الأمثلة وحدد مواطن كل من الجزالة والرقة وحارب الغموض فى الأدب ووضح القيم الجمالية فى التعبير ٠

الجزالة والرقة فى القرآن الكريم

القرآن الكريم فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف الالفاظ وأمسها رحما بالمعنى المراد وأجمعها للمشوارد وأقبلها للامتزاج ويضع كل لفظة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به حيث لايجد المعنى فى لفظه الا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ولايجد المعنى فى اللفظ الا وطنه الأمين وقراره المكين - والقرآن فى اختياره الألفاظ يختار مايؤدى المعنى تمام الأداء وتمثل ذلك فى كل شئونه وعلى سبيل المثال ٠

(أ) الجدل :

فانه يختار اللفظ الذى يقوم بالحجة ويدحض الشبهه وتمثل ذلك فى قوله تعالى « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا احيى وأميت - قال ابراهيم فان الله ياتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (٣٣) تأمل كيف تكون قوة الحجة حين طلب من الملك المتجبر الذى يدعى الالوهية أن يغير نظام

---

(٣٣) البقرة ٢٥٨ ٠

الكون فيأتى بالشمس من المغرب ويأمرها أن تغير نظامها الذى حدده الله لها - أنظر الى قوة الحجة حين اسقط فى يد ذلك المتكبر المتجبر وعبر القرآن عن هذا بلفظ واحد هو « فبهت الذى كفر »

(ب) فى مواطن اللين :

يختار اللفظ السهل العذب الذى يجذب القلوب ويرقق المشاعر ويهذب الطباع وتمثل ذلك فى قوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٣٤) وفى موطن الشدة تكون قوارع التهديد التى تذيب الصخور وتتفتت منها الابدان :

وأسلوب القرآن فى لفظه ومعناه له وقع فى القلوب وتمكن فى النفوس بحيث يقلق الكافر ويؤنس المؤمن ويضحك ويبكى ويفرح ويحزن ويهز الأعطاف ويستميل الأسماع فترتاح النفوس وتطمئن القلوب وتنشرح الصدور وتكون هزة المشتاق ورعدة الخائف - ذلك لأنه امتلك القلوب بسحر بيانه وهز النفوس بتأثير آياته ولقد لخص المرحوم مصطفى صادق الرافعى ذلك بقوله : الفاظ اذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة واذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب وان أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب (٣٥)

---

(٣٤) الفجر ٣٠ .

(٣٥) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٨ .

ووجوه اعجاز القرآن كثيرة تحدث عنها علماؤنا الأفاضل قديما وحديثا وسيظلون يتحدثون عنها الى يوم الدين - وسأحاول هنا أن أتحدث عن وجه واحد من وجوه اعجاز القرآن الكريم وهو الجزالة والرقة ذلك أن كثيرا من العلماء اعتبروهما وجها من وجوه اعجاز القرآن الكريم ومن هؤلاء ٠

(أ) ابن القيم فى كتابه الفوائد المشوق الى علوم القرآن

حيث بين أن من وجوه اعجاز القرآن الجزالة فيقول : والقرآن العظيم من وجوه اعجازه جزالة الفاظه وهو من أوله الى آخره لابس حلل الجزالة والفصاحة سالم من الرذالة والفظاعة - وأما الرذالة فهى فى غير القرآن فمنها فى المنظوم والمنثور كثير مثل قول أبى العتاهية

مات الخليفة أيها الثقلان فكأننى أفطرت فى رمضان (٣٦)

ابن القيم يرى ان الجزالة تساوى الفصاحة ولذلك اعتبر الجزالة هى البعد عن الرذالة أى البعد عن الألفاظ المبهمة الغامضة الثقيلة فى النطق المتوعرة التى تتصف بعنجهية البداوة وانما القرآن جزل سهل سلسل يعبر عن كل معنى بما يتواءم معه من الالفاظ - ويضرب ابن القيم مثلا للرقيق قول الشاعر

هوى صاحبى ريح الشمال اذ جرت وأشفى لقلبى أن تهب جنوب
يقولون لو عزيت قلبك فارعوى فقلت وهل للعاشقين قلوب

ويصل ابن القيم الى هدفه فيوضح ان - القرآن العظيم كله سهل ممتنع لفاظه سهله ومعانيه نادرة وأسلوبه غريب قد ازجت القلوب عذوبته وحلت فى العيون طلاوته وراق فى الأسماع سماعه فكل آية

---

(٣٦) الفوائد المشوق ص ٢٢٢ ٠

منه حسنة المساق وكل كلمة منه عذبة المذاق وكل معنى منه دق (٣٧) ورق .

(ب) السيوطى فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن :

اتفق مع ابن القيم فى اعتبار الجزالة والرقة من وجوه اعجاز القرآن الكريم فقال : من وجوه الاعجاز الروعة التى له فى قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقر والجاهد ومنها أنه لم يزل ولايزال غضا طريا فى اسماع السامعين وعلى السنة القارئين ومنها جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادان لايجتمعان غالبا فى كلام البشر (٣٨)

محاولة تفسير المقصود بالجزالة والرقة :

وبناء على ان العلماء اعتبروا الجزالة والرقة من وجوه اعجاز القرآن الكريم فقد حاولوا أن يضعوا مقاييس للجزالة والرقة ولعل الخطابى أول من حاول أن يضع مقاييس للجزالة والرقة وأول من حاول تفسير الألفاظ المتشابهة كالجزالة والرصانة والرقة والسهولة وسوف أنقل عنه نصا كاملا لتتضح الصورة عنده حين يقول : ذهب الأكثرون من علماء النظر الى وجوه الاعجاز فيه من جهة البلاغة ولكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه الى حكم الذوق والتحقيق أن اجناس الكلام مختلفة ومراتبها فى درجات البيان متفاوتة فمنها البليغ الرصين الجزل ومنها الفصيح القريب السهل ومنها الجائز المطلق المرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود فالأول أعلاها والثانى أوسطها والثالث أدناها وأقربها فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت

---

(٣٧) الفوائد المشوق ص ١٧٢ .

(٣٨) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٥٤ .

من كل نوع شعبة فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة يعالجان نوعا من الوعورة فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ليكون آية بينة لنبيه صلى الله عليه وسلم (٣٩) الخطابى فى هذا النص يريد أن يصل الى هدف محدد وهو بيان وجه من وجوه اعجاز القرآن الكريم وهو اعجازه البلاغى وخص بالذكر منها الجزالة والرقة وبين أن وجه الاعجاز فيهما أنهما متضادين لأن الجزالة تعنى القوة والرقة تعنى السهولة وقد اجتمعتا فى القرآن الكريم فى السورة الواحدة بل وفى بعض الأحيان فى الآية الواحدة وهذا هو سر الاعجاز لأنه من الصعب اجتماع الجزالة والرقة فى موضوع واحد بالنسبة للبشر ويشرح الخطابى فى موضوع آخر أن الجزالة ليست فى الغريب الوحشى من الألفاظ وانما الجزالة تعنى القوة مع السهولة فى الفهم واللذة فى السمع والتعبير عن الموضوع بصدق لاتشدق فيه ولا افتعال قال الخطابى :

وانما يكثر وحشى الالفاظ فى كلام الأوحاش من الناس والاجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له وليس ذلك معدودا فى النوع الأفضل من انواعه وانما المختار منه النمط الأقصد الذى جاء به القرآن الكريم وهو الذى جمع البلاغة والفخامة الى العذوبة والسهولة وقد يعد من الفاظ الغريب نحو ستين لفظة أكثرها بشع - كالعشنق فى الطويل -

---

(٣٩) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص٢٦ والاتقان جـ٢ ص١٥٤

والعشمط أى الظريف والشوقب والقوق والقاق فاصطلح أهل البلاغة على نبذها فى مرسل الكلام (٤٠)

يحيى بن حمزة العلوى :

اذا أتينا الى صاحب الطراز يحيى بن حمزة العلوى فانه يعطينا مقياسا للجزالة والرقة فى القرآن وذلك حين تحدث عن موضوع الائتلاف فبين أنه يأتى على أربعة أوجه وبين الوجه الأول منها بأنه تأليف اللفظ مع المعنى واختلف فى التسمية مع بقية علماء البلاغة فاطلق على الجزالة والرقة اسم الائتلاف وجعله نوعا من أنواع البديع وحدده بقوله : فان كان المعنى فخما كان اللفظ الموضوع له جزلا واذا كان المعنى رقيقا كان اللفظ رقيقا فيطابقه فى كل أحواله وهما اذا خرجا هذا المخرج تلاءما هذه الملاءمة ووقعا من البلاغة أحسن موقع وتألفا على أحسن شكل(٤١) .

ثم حدد وبين مواطن الجزالة فى القرآن الكريم بأن المعنى (اذا كان وعيدا وزجرا أو تهديدا أو انزال عذاب أو ايقاع واقعة أتى فيه بالألفاظ الغريبة الجزلة)(٤٢) .

وحدد الرقة بأنها تأتى فى مواضع الوعد والبشر ثم ضرب أمثلة من القرآن ومن كلام العرب ـ فقال ـ قوله تعالى « تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين »(٤٣) .

---

(٤٠) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٣٧ .

(٤١) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ٣ ص ١٤٤ .

(٤٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ٣ ص ١٤٥ .

(٤٣) يوسف ٨٥ .

فلما كان مفخما للخطب ومهولاله وخيف على يعقوب عليه السلام من دوام حزنه وطول أسفه جاء بالألفاظ الغريبة كقوله تفتؤ - والحرض - وهو الاشراف على الهلاك يقال حرض المريض اذا دنا من الهلاك وكما قال زهير :

أسافى شفعا فى معرس مرجل

ونؤيا كجذم الحوض لم يثلم

فلما عرفت الدار قلت لربعها

الا انعم صباحا أيها الربع واسلم

فالبيت الأول ألفاظه غريبة لما كان المعنى فصيحا جزلا لكونه غير معروف مجهولا حاله فلما عرفه أتى فى البيت الثانى بما يلائم من رقة اللفظ وحسنه ورشاقته لما فيها من البيان والظهور وكثرة الاستعمال)(٤٤) .

وتحديد مواطن الجزالة والرقة فى القرآن اتضحت عند ضياء الدين ابن الأثير حيث بين أن الجزالة تستعمل فى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا(٤٥). ومواطن الرقة عند ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة واللاطفات فى خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين والتائبين وما جرى هذا المجرى فانك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفا (٤٦) وشارك السيوطى كلا من العلوى وابن الأثير فحدد مواطن الجزالة والرقة فى القرآن الكريم -

---

(٤٤) الطراز ج ٣ ص ١٤٥ - ١٤٦ وتحرير التحبير ص ١٩٥ .
(٤٥) المثل السائر ص ٦٥ .
(٤٦) المثل السائر ص ٦٥ .

بأنها فى حسن الابتداء حيث يقول حسن الابتداء وهو أن يتأنق فى أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع فان كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه والا أعرض عنه ولو كان الباقى فى نهاية الحسن فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظما وسبكا وأصحه معنى وأخلاه من التعقيد(٤٧) وهذا الاتجاه فى تحديد مواطن الجزالة والرقة يقودنا الى الكلام على الأسلوب ٠

الأسلوب :

هو طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر فى نفس السامع أو القارىء - وللأسلوب أثر فى النفس بجانب المعنى فلو أنك عرضت المعنى الجيد بأسلوب جيد لكان التأثير شديدا وقويا وخاصة اذا كانت المعانى مختمرة فى ذهن المبدع والأفكار واضحة لديه وأوتى حظا من التعبير البليغ - لا شك أنه يؤثر فى المشاعر ويقنع العقول - ومهمة البلاغة تعلمنا كيف ننقى الأسلوب من الغريب المعقد وكيف نوضح المعانى بأسلوب سهل بسيط ممتع جذاب ٠ ومن المتفق عليه أن أساليب البلغاء تختلف باختلاف البيئات والعصور فأسلوب البدوى غير أسلوب الحضرى بل الكاتب يختلف أسلوبه من موضوع الى آخر - ذلك أن الكاتب حين يتحدث فى موضوع - أيا كان هذا الموضوع انما يصدر عن فكرة معينة يريد أن يشرحها ولا بد أن يكون الأسلوب موافقا لطبيعة تلك الفكرة فان جاءت ألفاظه قوية هادرة فان طبيعة الموضوع تقتضى ذلك وان جاءت سلسة عذبة رقيقة فان طبيعة الموضوع هى التى استدعت ذلك - وهذه نظرية قديمة أبدع فى شرحها علماء القرآن من قديم الزمان فهذا هو الجرجانى يقول (اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص

---

(٤٧) الاتقان جـ ٢ ص ١٣٦ ٠

وأولى وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم وهو فيه أحلى)(٤٨) واذا كان المحدثون قد تكلموا فى الأسلوب واعتبروا ما تحدثوا به جديدا فهو ليس بجديد لأن الدراسات القرآنية قد اعتنت بهذا الموضوع عناية فائقة وكانت قمة تلك الدراسة ما قاله الجرجانى - واذا علا الكلام فى نفسه كان له من الوضع فى القلوب والتمكن فى النفوس ما يذهل ويبهج ، يقلق ويؤنس ويطمع ويؤيس ويضحك ويبكى ويحزن ويفرح ويسكن ويزعج ويشجى ويطرب ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الأسماع ويورث الأريحية والعزة ويبعث على بذل المهج شجاعة وجودا ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا وله مسالك فى النفوس لطيفة ومداخل الى القلوب دقيقة(٤٩)هذا هو الأثر النفسى للأدب الذى تحدث عنه المحدثون وأسهبوا فى الحديث عنه جمعه الجرجانى فى تلك الكلمات التى جمعت فأوعت حيث أن البلاغة ايصال المعنى الى القلب فى أبهى صورة من اللفظ .

نماذج للجزالة والرقة فى القرآن الكريم

لا ولن أستطيع أن أحصى نماذج الجزالة والرقة فى القرآن الكريم لأن هذا يحتاج الى مجلدات ضخمة وعمل كبير لا أدعى لنفسى شرف القيام به وانما سأعرض لنماذج محددة جدا وركزت على يوم القيامة لما فيه من صور متباينة لمخاطبة المؤمنين والمنيبين والصالحين فى رقة وحنان وتخاطب المؤمنين فيما بينهم وصور جميلة لمخاطبة الملائكة للمؤمنين وأخرى قاسية مزمجرة غاضبة واعدة منذرة للكافرين وما يلقونه فى جهنم ورد الملائكة على حجج أولئك الظالمين فهى صور متباينة حقا بجانب ذكر بعض الصور الأخرى لما فى القرآن من جزالة ورقة واليك الآتى :

---

(٤٨) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ١١٧ .
(٤٩) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ١٦٦ .

أولا : أسماء يوم القيامة :

أسماء القيامة هى - الحاقة - القارعة - الصاخة - الواقعة - الطامة الكبرى - يوم القيامة - يوم الفصل - يوم التغابن - يوم النشر - يوم الدين - الحافرة - الساعة - اليوم الموعود - الغاشية - الزلزلة - أمر الله -

تلك الأسماء ليوم القيامة توحى بالقوة والشدة والحزم لأن الأمر جد خطير فهو الحاقة لأنه سيقع حقا وصدقا وسيعود الحق الى أهله من الظالمين وهى الواقعة لتحقق الوقوع لا محالة - وهى القارعة وأصل القرع الضرب بشدة - تقول العرب قرعتهم القارعة وهى تقرع الخلائق بأهوالها وقرع الطبول اشتدادها فما بالك حين تصدر أصوات عالية صاخبة عن زلزلة الأرض وتفجر النجوم وثورة البحار لابد أنها ستقرع قرعا عاليا ورهيبا تجعل الناس فى هول وذهول - وتأمل القاف والعين . وكيف أوحت ايحاءها ونتيجة لذلك سميت الصاخة وهى الصيحة التى تصم الأذن لشدتها وانظر الى قوة الصاد والخاء لتتأمل قوة الوقع والتاثير فى القلوب - وهى الطامة الكبرى - (أى الداهية التى تطم على الدواهى أى تعلو وتغلب وفى أمثالهم جرى الوادى فطم على القرى وهى القيامة لطمها على كل هائلة)(١) .

وقيل هى الداهية العظمى التى لا تستطاع قال الشاعر :

ان بعض الحب يعمى ويصم وكذلك البغض أدهى وأمر (٢)

وفى وصف الطامة بالكبرى ايحاء بأنها ليست داهية ومصيبة كالمصائب التى تقع فى الدنيا وليست زلزلة كزلزلة الدنيا ولا كارثة من

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٢٢ .
(٢) البحر المحيط ص ٤١٨ .

كوارث الطبيعة التى نراها ونسمع عنها وانما هى طامة كبرى لا تبقى ولا تذر وسميت الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها ويوم التغابن من الغبن أى النقص يقال غبنه غبنا اذا أخذ منه الشيء بدون قيمته وسيظهر فيه غبن الكافرين بتركهم الايمان وغبن المؤمن لتقصيره في الاحسان ٠

نلاحظ أن الألفاظ جزلة قوية معبرة عن الموضوع الذى سميت به حيث أن الهدف تذكير الناس بوقوع يوم القيامة فالأسماء واضحة لا غموض فيها ولا فلسفة وانما عبرت بحروفها ونغماتها ومعانيها عما يحدث يوم القيامة ويتحدث الله - سبحانه - عن يوم القيامة بثقة واطمئنان ويخبر عما فيه لنراه رأى العيان فكما أصبحت الحياة واقعا فعليا بعد أن كانت لا شيء فالبعث حقيقة واقعة ولذا فان حديث الله عن الساعة حديث المتيقن الواثق المطمئن لذا عبر عنها بأقوى النبرات العالية فى أسلوب صاخب عال فى موسيقاه ليسمع الجميع ولينذر الجميع وليتيقن الجميع أنه واقع واقع لا محالة ٠

تحليل لآيات جاءت فى أسلوب جزل :

١ - قوله تعالى « اذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الانسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ٠

سورة الزلزلة كما يوحى اسمها الدمار والخراب لأن الزلزلة هى حركة الأرض العنيفة واضطرابها الشديد واهتزازها بمن عليها وبما فى باطنها اهتزازا عنيفا قاسيا كما تعبر الآية « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم »(٣) ونلمح فى اضافة الزلزلة الى الأرض -

(٣) الحج ١ ٠

زالزالها - التهويل الرهيب (كأنه يقول الزلزلة التى تليق بها على عظم جرمها وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكا عنيفا متتابعا وتضطرب بمن عليها حتى تلقى ما على ظهرها من جبل وشجر وبناء وقلاع) (٤) وليت الهول عند هذا الحد بل وأخرجت الأرض أثقالها أنظر الى لفظة (أخرجت) حيث أن الأرض لم تبق شيئا فأخرجت أثقالها وتأمل لفظة (أثقالها) أى ما فى بطنها من جذور الجبال والحديد والموتى وبقية المعادن تدرك قيمة التعبير بأثقالها دون غيره وهنا تظهر المفاجأة فيقف الانسان مشدودا مذهولا حائرا لا يدرى ماذا يفعل فيسأل سؤال التعجب والدهشة والاستغراب ما لها ؟ ولذا تأتيه الاجابة التى لا يتوقعها بأن تخبره الأرض بأن ربك أوحى لها - فهى مأمورة ولا بد أن تنفذ الأمر ومع هذا الواقع الرهيب « يصدر الناس أشتاتا » ويصدر بمعنى يخرج والصدور ضد الورود فالوارد هو الآتى والصادر هو المنصرف - ينصرف الى الذهن أن الناس يصدرون فى ذلك اليوم مجتمعين متكتلين ليتعاونوا على صرف ذلك الهول ولكن تأتى المفاجأة فى لفظ - أشتاتا .. أى متفرقين لا يلتفت أحدهم الى الآخر على حد قوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٥) وهنا يرى كل انسان عمله وجاءت الآية - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره من المعلوم أن الذرة أصغر شىء فى الوجود وتأمل تعبير القرآن - مثقال ذرة - التى أحاطت بكل شىء من الأعمال مهما صغر وتأمل الطباق البليغ بين الخير والشر وأسلوب الشرط فى « فمن يعمل

---

(٤) الألوسى جـ ٣٠ ص ٢٠٩ .

(٥) عبس ٣٧ .

مثقال ذرة خيرا يره » وكيف يتحقق الجواب حين يتحقق الشرط لأن الانسان مكلف مسئول « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون »(٦) قال السيوطى أجمع آية فى القرآن قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »(٧) بعد هذا التحليل اقرأ السورة مرة أخرى وتأمل ألفاظها تجدها من قوارع القرآن ذات اللفظ الجزل القوى المتين - العذب السهل فليست الجزالة مجرد كلمات مجرد ألفاظ غامضة صعبة فى النطق لا معنى لها وانما الجزالة جاءت متسقة مع المعنى حيث أن المعانى هنا شديدة لأنها النذير العريان - القارعة المزلزلة فجاءت ألفاظها قوية لتوصل المعانى الى القلوب فتقشعر - ولا نقارن بين الشعر والقرآن وانما مجرد قياس لنصل من ورائه كيف تكون الجزالة فى القرآن الكريم - فاذا كان ضياء الدين بن الأثير قد وصف شعر السموأل بن عاديا حين قال :

وأسيافنا فى كل غرب ومشرق
بها من قراع الدارعين فلول
معودة الا بسل نصالها
فتغمد حتى يستباح فنيل

قال انظر الى ما تضمنه شعره من الجزالة خلناه زبرا من الحديد وهى مع ذلك مستعذبة غير فظة ولا غليظة(٨) .

فكيف يكون الحال حين وصف الله الزلزلة واخراج الأثقال وحال

---

(٦) المؤمنون ١١٥ .
(٧) الاتقان جـ ٢ ص ٢٠٥ .
(٨) المثل السائر ص ٦٦ - ٦٧ .

الناس وموقفهم في القيـامة ألفـاظ من نار وحديد ونحاس مذاب تذيب القلوب وتفتت العظام ـ فسبحان المتحدث العليم الخبير ٠

٢ ـ قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتـابيه ولم أدر ما حسـابيه ياليتهـا كانت القاضـية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ـ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام الا من غسلين لا يأكله الا الخاطئون »(٩) ٠

فى هذه الآيات مقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين وتصوير دقيق لحالة الفريقين يوم القيامة وجاءت الآيات فى أسلوب جزل قوى ـ فاذا كان الأسلوب الرقيق يأتى فى تصوير نعيم المؤمنين والجزل يكون لتصوير حال الكافرين فان الآيات هنا جاءت فى أسلوب جزل سواء كان لتصوير نعيم المؤمنين أو شقاء الكافرين وجاء التصوير فى ألفاظ محكمة معبرة لا ترى فيهـا غرابة فى المعنى ولا صـعوبة فى النطق ولا تنافر فى الحروف وانما ألفاظ سلسة عذبة موحية مؤثرة وبجانب ذلك حملت من المعانى الفخمة الشىء الكثير والى وظيفة اللفظ فى الأسلوب يشير الرمانى الى ذلك بقوله « انما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة ـ لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم ـ واذا تأملت القرآن الكريم وجدت هذه الأمور

---

(٩) الحاقة ١٨ ـ ٣٧ ٠

فى غاية الشرف حتى لاترى شيئا من الألفاظ أصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماأحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه»(١٠) ويبين ابن الأثير الشروط الواجب توافرها فى اللفظة حتى تكون جزلة أو رقيقة فبين الشرط **الأول** اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللائى المبددة فانها تتخير وتنتقى **الثانى** نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجىء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها **الثالث** الغرض المقصود من ذلك الكلام وحكم ذلك حكم الموضع الذى وضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل قلادة وتارة يجعل شنفا فى الأذن »(١١) والقرآن الكريم قد طوع ألفاظ اللغة وأدواتها على نسق فريد معجز ذلك أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد وأجمعها للشوارد وأقبلها للامتزاج ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به بحيث لا يجد اللفظ فى معناه الا وطنه الأمين وقراره المكين(١٢) ولنعد الى النص - الآيات - لنرى فيها تطبيقا عمليا لكل هذا السحر الحلال - التعبير المتقابل فى قوله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه وأما من أوتى كتابه بشماله » .

اليمين هى اليد اليمنى والشمال هى اليد اليسرى والعرب تكنى عن اليد اليمنى بالخير والبركة والفلاح وعن اليسرى بالشر والتشاؤم وفساد الأمر وأصل ذلك أن العرب كانوا يستخبرون بزجر الطير واثارتها من وكناتها ومواضعها فاذا طار الطائر وأخذ ذات اليمين تفاءلوا وتيمنوا

---

(١٠) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٢٧ .
(١١) المثل السائر ص ٦٥ .
(١٢) النبأ العظيم ص ٩٢ .

ومضوا فى أعمالهم التى كانوا فيها مترددين ، وسموا ذلك الطائر سانحا واذا طار الى جهة الشمال تشاءموا وتطيروا وأحجموا عن العمل وسموا ذلك الطائر بارحا - ونقل الأصمعى عن العرب أنهم يقولون فلان عندنا باليمين أى بالمنزلة الحسنة وفلان عندنا بالشمال اذا خست منزلته وسئل نفطويه عن قول جرير

وانى لعف الفقر مشترك الغنى سريع اذا لم أرض دارى احتماليا

وباسط خير فيكمو بيمينه وقابض شر عنكمو بشماله

فقال ان العرب تنسب كل خير لليمين وكل شر الى الشمال واستشهد بهذه الآية (١٣) « هاؤم اقرءوا كتابيه » هاؤم اسم فعل أمر بمعنى خذوا « ويدل هاؤم اقرءوا كتابيه على أنه بلغ الغاية فى السرور لأنه أعطى كتابه بيمينه - علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله » (١٤) هذا التعبير يوحى بما فى نفس المؤمن من فرح وسرور وذلك لأن الانسان حين ينجح فى الامتحان فانه يتهلل وينشرح قلبه ويريد أن يخبر كل الناس ويكاد أن يخبر المبانى والشوارع والجبال والأنهار بنجاحه فكيف به فى الآخرة التى يقول عنها القرآن

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٥) ولمح ابن كثير هذا المعنى حين قال - يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه بيمينه يوم القيامة وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه هاؤم

---

(١٣) جزء تبارك ص ٢٨ الشيخ عبد القادر المغربى .
(١٤) الفخر الرازى جـ ٣ ص ١١١ .
(١٥) آل عمران ١٨٥ .

أقرءوا كتابيه (١٦) أرأيت كيف عبر اللفظ هاؤم اقرءوا كتابيه - عن فرحة غامرة بلفظ جزل سهل سلس « انى ظننت أنى ملاق حسابيه » الظن هنا بمعنى العلم واليقين ولعل النكته فى العدول عن التعبير بالعلم الى التعبير بالظن - هى افادة ان مجرد الظن بيوم الحساب كاف فى حمل العبد على الايمان والطاعة فما بالك اذا كان يعلمه علما ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى « وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه » (١٧)

والهاء فى كتابيه - وحسابيه - وسلطانيه - هاء السكت تعطى ترتيلا جميلا رائعا لاسيما والآيات مراعى فيها الازدواج مع الكلمات - راضيه - عاليه - خاليه - وهذه الكلمات - كتابيه وحسابيه وسلطانيه جاءت خاطفة سريعة توحى بالحسرة والندم والألم « فى عيشة راضيه » مجاز عقلى اسند اسم الفاعل الى اسم المفعول اسنادا مجازيا والمحققون على أن الراضية هى العيشة نفسها وأن نسبة الرضا اليها القصد به المبالغة فى رضا صاحبها وأن الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره الى عيشته نفسها فأصبحت راضية أيضا ونتيجة لعيشته الراضية فانه فى جنة عالية وتقول له الملائكة ولكل من فى مثل حالته فى حنو وعطف - كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية : -

ثم يتغير السياق والوقع وينتقل الحديث الى عنف وشدة وترتفع النبرة فى « وأما من أوتى كتابه بشماله » نرى حالة عجيبة يقول الخاسر صائحا مولولا نادما فى حسرة تمزق القلوب - ياليتنى لم أوت كتابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ، فقرات شديدة الوقع حادة المزاج مستنجده ولكن فى حسرة وحزن وألم عميق

---

(١٦) ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٠ .
(١٧) التوبه : ١١٨ .

- ويطالعنا أسلوب التمنى الموحى بالحسرة والندامة فى وقت لاينفع فيه الندم « ياليتها كانت القاضية » أى ياليت الموته التى متها كانت القاضية القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألق آو للحالة اى ليت هـذه الحالة كانت الموتة التى قضت على لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته (١٨)

ونرى هنا التناقض العجيب فى حال الـكافر حيث ان الموت أكره شىء لديه فى الحياة الدنيا • يتمنـاه الآن ولكن لن ينفعه التمنى حيث مضى وقته ولم تبق منه الا الحسرة والندم ثم يشفع ذلك الندم باستفهام آخر على وجه الانكار أى شىء أغنى عنى ما كان لى من اليسار - ما أغنى عنى ماليه - ذلك أن الانسان يغتر بماله وغناه « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » (١٩) وتظهـر الحقيقة الواهية التى كان يحتمى بهـا حيث يقول - هلك عنى سلطانيه حيث زال المـال والسـلطان والملك والكذب والدس والخديعة والمكر والنفاق الذى كان يعيش فيه - ويصل الأسلوب الى ذروة العلو والصخب حيث ترتعد الأوصال وتقشعر الجلود وترتجف القلوب •

« خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » ياله من منظر رهيب حيث الأخذ بالقـوة لأن الله حين يقـول للملائكة العذاب خذوه فغلوه فيتسابق الملائكة أيهم ينفذ آمر الرب سبحانه - ويوثق ذلك الذى كان جبارا عنيدا صاحب السلطان - فيغـل الكافر حيث يقيد بالسلاسل لأن الغل هو مايقيد به الأسير ويلقى فى الجحيـم

---

(١٨) الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٦ •
(١٩) العلق ٦ - ٧ •

وهى أشد أماكن النار تأججا - وصلوه - من التصلية وهى حرق الشيء على النار أى اجعلوه فى الجحيم يصلاها - وأتى التعبير - ثم الجحيم صلوه - لأنه كان سلطانا فى الدنيا - لتأتى الألفاظ معبرة عن الغرض النفسى المعبر عن العذاب الشديد الرهيب ومع هذه الحالة فهو مقيد فى سلسلة طولها سبعون ذراعا والسبعين يستعمل فى كلام العرب عند ارادة الكثرة وعليه قوله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (٢٠) وفى تقديم لفظ الجحيم على صلوه وتقديم لفظ سلسلة - على فاسلكوه لأن : المعنى « أيها المأمورون بعذاب ذلك الجاحد لايسمح لكم أن توردوه من طبقات النار الا أشدها حرا وأقواها عذابا واشتعالا ولاأن تعذبوه من آلات العذاب الا بأعظمها هولا وأبينها طولا » (٢١) وثم ليست للتراخى الزمانى وانما هى للدلالة على التفاوت فى الرتبة بين الغل والتصلية فى الجحيم والسلك فى السلسلة الطويلة .

خلاصة القول :

جاءت الألفاظ منحدرة من طبيعة الموضوع حيث القوة والرصانه والعنف فى السياق ومع ذلك سلسة عذبة لا غرابة فيها ولا تنافر لأنها عبرت أصدق تعبير عن عذاب الكافرين فهى مشاهد قوية مؤثرة بمضمونها المؤثر الرائع نطق به القرآن جزلا بفواصله ونظمه وتصويره ليثبت من وراء ذلك قضية البعث التى قامت عليها الدعوة الاسلامية لتؤكد عدالة الله عز وجل فيما سيكون من ثواب وعقاب .

---

(٢٠) التوبة : ٨٠ .

(٢١) تفسير جزء تبارك ص٤١ - الشيخ عبد القادر المغربى .

تحليل لآيات جاءت فى أسلوب رقيق :

١ - قوله تعالى : « كلا اذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد - « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٢٢)

الآيات هنا مقابلة بين عذاب العاصى ونعيم المؤمن ومع مافى الآيات من تقابل بين العذاب والنعيم - تأتى الآيات عذبة حانية رقيقة تلين القلوب وتهز المشاعر ليئوب الكافر الى ربه قبل فوات الأوان ولتبشر المؤمن .

والآيات « ولله المثل الأعلى » نداء أب رحيم شفوق عطرف له ولدان عاص ومطيع يبصرهم ويرشدهم فى حنو وعطف وشفقة لامثيل لها وأول مايطالعنا من التحليل البلاغى لفظ « كلا » « ردع لهم عن ذلك وانكار لفعلهم » (٢٣) وتمثل هذا الردع فى صورة دك الأرض دكا لأن الأسلوب للتوكيد دكا دكا - حتى صارت هباء منبثا بعد أن كانت متماسكة قوية صلبة - وفى مجيء الله عز وجل مايوحى بالهيبة والعقمة وظهور السلطان الالهى حيث جاء فى معيته الملائكة فى تناسق عجيب رائع - صفا صفا - لا اضطراب ولا همجية بالرغم من تبدل أمور الكون والعدد الذى لايحصى من البشر والحيوانات والطيور وكل من عاش فى الدنيا - ولزيادة الحض على الايمان ذكرهم فى هذا الموقف بعرض جهنم مجرد أن يروها قبل أن يدخلوها وكفى بالعرض زاجرا ورادعا ومخوفا لأن عرض جهنم

---

(٢٢) الفجر ٢١ : ٣٠ .

(٢٣) الكشاف : جـ ٢ ص ٥٤٣ .

ليس للزينة ولا للهو وانما للتذكرة والعبرة - يومئذ يتذكر الانسان ماسعى - ويأتى الاستفهام الموحى بالاستبعاد والحسرة والندم - وأنى لهم الكرى ؟ أى ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها ثم يأتى التمنى العجيب الموحى بالحسرة والندم على مافات ياليتنى قدمت لحياتى - ولنتأمل لفظ (حياتى) المقصود به الحياة الآخرة فقد محى الكافر حياته فى الدنيا واعتبرها شيئا تافها لا قيمة له بعد أن كان كما عبر القرآن « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (٢٤)

مجرد حياة كان يحرص عليها كل الحرص - الآن علم حقيقة أن الحياة الآخرة هى الحياة والملجأ والملاذ وهى الجديرة بالحياة ونلاحظ فى قوله « وجىء يومئذ بجنهم - وقوله يومئذ يتذكر الانسان - ويومئذ لايعذب عذابه ليقوى عندك استحضار دك الأرض وظهور الجلال الالهى ثم ان التنوين فى يومئذ الأولى نائب عن دكت الأرض ومجىء ربك والملك وفى يومئذ يتذكر - تائب عن ذلك وعن مجىء جهنم - وفى يومئذ الثالثة فيومئذ لايعذب ينوب التنوين عما تقدم وعما تضمنه قوله - ياليتنى قدمت لحياتى » .

وفى ذلك الجو المكفهر تأتى اللمسه الالهية والرحمة الربانية والحنو الأبدى من رب العزة فى ذلك النداء الحانى واللحن الربانى - « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب ايجاز القرآن الكريم التى لاتخطر لبشر على بال فان التقى الخائف الذى يخاف مقام ربه اذا سمع ذلك الوعيد المتقدم أخذت الرهبة نفسه وأفعمت الخشية قلبه

---

(٢٤) البقرة : ٩٦ .

فبينما هو كذلك اذ ينقذه هذا النداء (٢٥) وفى لفظ المطمئنة مايوحى بالاطمئنان والأمان لأنها اطمأنت الى وعد الله فى الدنيا فلا يلحقها فزع ولا خوف يوم القيامة وفى لفظ راضية مرضية تناسق عجيب بين راضية ومرضية حيث توافق الحروف وتناسق المعنى لأن راضية بمعنى راضية بما أوتيت وقريرة العين ولا شىء أجمل من منزلة الرضا ومرضية عند الله عز وجل بمعنى رضى الله عنهم ورضوا عنه بمعنى قرت عيونهم ورضيت قلوبهم نتيجة لرضا ربهم عنهم - وتأتى الاضافة للتشريف حيث شرفوا بأنهم دخلوا فى عباد الله الصالحين ودخلوا فى جنه الله عز وجل :

المعانى قوية لأنها انذار وتبشير وعرض لموقف من مواقف القيامة يصور مايحدث كأنك تشاهده بعينيك وتلمح من خلال الالفاظ الرقة والعذوبة والحنو والعطف لأن الأسلوب رقيق جميل يستحث العباد على الايمان والعمل قبل فوات الأوان .

٢ - قوله تعالى : « والضحى والليل اذا سجى - ما ودعك ربك وما قلى - وللآخرة خير لك من الأولى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى - ووجدك عائلا فأغنى - فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث »

العلاقة بين النص والحالة النفسية :

درج النقاد فى العصر الحديث على مفهوم يعتبرونه جديدا وهو العلاقة بين النص والمتلقى وأنه كلما وثقت العلاقة بين المبدع وبين المتلقى وحاول كل منهما أن يبرز مايجيش بنفسه من خواطر وأحاسيس فان العمل الأدبى يأتى معبرا قويا وخاصة اذا روعيت الحالة النفسية

---

(٢٥) تفسير جزء عم - الشيخ محمد عبده ص ٦٦ .

للمتلقي الذى يتأثر بما يلقي اليه - عند ذلك يعبر العمل عن احساس نابع من القلب والعقل فيصل الى العقل والقلب :

هذا من ناحية البشر - فما بالك اذا كان النص قرآنا يتلى - فالقائل هو رب العزة والمتلقي والمقول بشأنه هو الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم - هذا المدخل يدخل بنا الى معرفة الحالة النفسية للنبى صلى الله عليه وسلم قبل خطاب الله له وقبل نزول سورة الضحى - فتحدثنا كتب التفسير عن أسباب نزول السورة اختبرت من بينها السبب الآتي - قال السيوطي ٠

أبطأ جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة انى أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك - وقيل ان أم جميل هى التى قالت ذلك - قال الحافظ بن حجر فالذي يظهر أن كلا من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالته شماتة وخديجة قالته توجعا (٢٦) والذى لاشك فيه كما ثبت من السورة نفسها أن هناك فترة انقطاع من الوحى وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حزن حزنا شديدا من أجل هذا بل ان هذه الفترة قد طالت الى خمسة عشر يوما كما ذكر فى تفسير الجلالين حين قال نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحى عنه خمسة عشر يوما (٢٧) وقيل أربعين يوما وتخيل مدى حزن النبى صلى الله عليه وسلم حين انقطع عنه الوحى - ذلك أنه عرف الحب الصادق بينه وبين ربه وحبه للقرآن الذى ينزل عليه من السماء بعد تعبد وفكر دائب فى غار حراء جاءته الحقيقة الناصعة فى قرآن يتلى - والدليل على ذلك الحب خوفه الشديد أن ينسى القرآن يقول ابن كثير

---

(٢٦) أسباب النزول للسيوطى ص ٣٠٠ مكتبة نصيه ٠

(٢٧) تفسير الجلالين ص ٢٦٥ طبعة الحلبى ٠

« كان اذا نزل عليه الوحى عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره » (٢٨) فنزل قوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان ظلينا بيانه » اذا كانت هذه حالة النبى صلى الله عليه وسلم خشية أن ينسى القرآن فما بالك اذا انقطع الوحى عنه لابد أنه موقف عصيب تمر معه الساعات كأنها أيام بل الثوانى كأنها سنين وذلك حزنا على الوحى الذى انقطع والنور الذى ذهب ـ لذلك جاءت الآيات لتلقى وتؤكد الاطمئنان فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم ولتعبر فى أسلوب رقيق عذب عذوبة الماء البارد على شدة الظما فى يوم حار جاءت الآيات فى أساليب بلاغية قوية والفاظ حانية رقيقة ظهرت فى النقاط التالية :

(أ) القسم :

تمثل فى قوله تعالى « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وماقلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى »

حيث يقسم سبحانه وتعالى بشيئين فى منتهى الرقة والعذوبة فى اللفظ وفى المعنى حيث أن لفظ ـ الضحى ـ يعنى الوقت ـ من طلوع الشمس الى أن يرتفع النهار وتبين الشمس ثم بعد ذلك الضحاء الى قريب من نصف النهار ـ والضحى حين تطلع الشمس فيصفو ضوؤها (٢٩) ولفظ سجى ـ ليلة ساجية اذا كانت ساكنه البرد والريح والسحاب غير مظلمة وسجا البحر سجوا سكن تموجه (٣٠) قال الشاعر

---

(٢٨) ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٦ .
(٢٩) لسان العرب مادة ضحى ص ٢٥٥٩ .
(٣٠) لسان العرب مادة سجا ص ١٩٤٨ .

ياحبذا القمـراء والليل الساج وطرق مثل مـلاء النساج (٣١)

وقيل سجى الليل أى سكون الناس والأصول فيه (٣٢) والقسـم بهذين اللفظين وقت الضحى والليل السـاجى يوحى بالحنـو والعطف والرقة واللطافة ـ حيث أن الله عز وجل يشعر نبيه بوقت الضحى وهو أول النهار حيث الصفاء الذاهنى والاستعداد التـام للعمـل وحيث بداية الحركة فى الكون حيث تكون الشمس فى أشد حالات اعتدالها لا حـر ولا برد وانما نور صاف وشعاع مضىء ـ ووقت الليل حين يسكن الليل والريح والناس لا ظلمة قاتله ولا ضجيج صاخب ـ وانمـا وقت السحر مع بداية بزوغ الفجر حيث الليل ينحدر فى هدوء تام وياحبذا فى ليلة مقمرة معتدلة ـ فان وقت سجو الليل يعنى قمة الشـاعرية والهـدوء والأطمئنان النفسى ـ يقسـم الله بهذين الوقتين ليشعر حبيبه محمـدا بالمناجاة فى الأوقات التى يخلو فيهـا الحبيب بحبيبه ـ أوقات منتقـاة بعناية ليكون القسم حانيا ومطمئنا بأن محمدا فى قمة المـودة والصـفاء والاصطفاء وأن الله لن يتخلى عنه أبدا .

ولقد عبر الشهيد سيد قطب عن هذا المعنى حين قال « ذلك الحنان وتلك الرحمة وذلك الرضى وهذا الشجى تتسرب كلهـا من خـلال النظم اللطيف العبارة الرقيق اللفظ ومن هذه الموسيقى السماوية فى التعبير ـ فلما أراد اطارا لهذا الحنـان اللطيف ولهذه الرحمة الوديعة ولهـذا الرضى الشامل وهذا الشجى الشفيف ـ جعل الاطار من الضحى الرائق ومن الليل الساجى أصفى آنين من آونة الليل والنهـار ـ وأشـف آنين ترى فيهما التأملات » (٣٣)

---

(٣١) أساس البلاغة للزمخشرى ص ٤٠٤ .

(٣٢) الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٩ .

(٣٣) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ص ٤٤ الشهيد سيد قطب

(ب) جواب القسم :

« ما ودعك ربك وماقلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى »

تقول معاجم اللغة - في الحديث اذا لم ينكر الناس المنكر فقد تودع منهم - أى أهملوا وتركوا - وأصله من التوديع وهو الترك وقولهم دع هذا أى اتركه والوداع بالفتح - الترك والوداع توديع الناس بعضهم بعضا فى المسير قال القطامى

قفى قبل التفرق ياضباعا ولايك موقف منك الوداعا

أراد ولايك منك موقف الوداعا لأن موقف الوداع يكون للفراق ويكون منغصا بما يتلوه من التباريح والشوق (٣٤) أما لفظ قلى - قال ابن سيده قليته قلى وقلاه أى ابغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته ويقال للرجل اذا أقلقه أمر مهم فبات ليله ساهرا بات يتقلى على فراشه كأنه على المقلى وقيل من يتقلى على فراشه أى يتململ ولا يستقر (٣٥) تضمن جواب القسم ثلاثة أمور .

الأول : ما ودعك ربك وما قلى - بمعنى أن الودع هو الترك - ماتركك ربك أبدا ولن يتركك ربك أبدا وكذلك ما ابغضك ولن يبغضك والمتأمل للمعانى اللغوية للكلمتين يرى منتهى الرقة حيث أن التوديع بمعنى الاهمال والترك ونفى ذلك بما - فلن يكون هناك اهمال من الله لرسوله ولا قلى كذلك وحين نستأنس بالتفسير اللغوى لقلى نجدها من أقلقه أمر مهم فبات ليله ساهرا يتقلى على فراشه كأنه على المقلى فمعنى ذلك تصوير شديد لمدى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من هم

---

(٣٤) لسان العرب مادة ودع ص ٤٧٩٦ والأساس ص ٤٩٥ .
(٣٥) لسان العرب مادة قلا ص ٣٧٣١ مختار الصحاح ص ٥٥٠ .

حزن وقلى ولذلك نفى الفعل بـ (ما) تطمينا للنبى صلى الله عليه وسلم بمعنى لاتحزن ولا تضنى نفسك فى الحزن لأن الله ما قلاك أبدا ولن يقليك - أرأيت الفاظا تسيل رقة وعذوبة وحنانا واطمئنانا أكثر من هذين اللفظين - لاشك أنها مست قلب النبي صلى الله عليه وسلم وجعلته في كنف الله دائما وأن له من الشأن والمنزلة بحيث لايترك ولايقلى وأكد هذا المعنى بالجواب **الثانى** للقسم - وللآخرة خير لك من الأولى « اللام للابتداء مؤكدة لمضمون الجملة - وجاء بقيد - خير لك لأنها ليست خيرا لكل أحد » (٣٦) بمعنى أن الخطاب فى (لك) خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم - ويعلل الزمخشرى للصلة الوثيقة بين جواب القسم الأول - ماودعك ربك وما قلى - وبين الجواب الثانى - وللآخرة خير لك من الأولى بقوله ٠

فان قلت كيف اتصل قوله تعالى وللآخرة خير لك من الأولى بما قبله - قلت - لما كان فى ضمن التوديع والقلى ان الله مواصلك بالوحى اليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه أخبره أن حالة فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل وهو السبق والتقدم على جميع الأنبياء والرسل وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين واعلاء مراتبهم (٣٧) ثم أكد جواب القسم الثالث « ولسوف يعطيك ربك فترضى » بـ (لام) الابتداء وسوف - وذلك ليبين الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ان العطاء كأن لا محالة والضمير فى يعطيك للنبى صلى الله عليه وسلم للخصوصية والضمير فى ربك للايناس والاشعار بأن ربك خالقك ومؤيدك ومعطيك فاطمئن وتأمل مايوحى به لفظ فترضى حيث أن « أرضاه أى أعطاه مايرضى به (٣٨) » والرضا ضد السخط فمعنى ذلك أن الله يطمئن نبيه كيف يقليه ويتركه وهو سيعطيه حتى يصل الى درجة الرضى التى ليس بعدها درجة حيث تقر العين ويطمئن الفؤاد

(٣٦ ، ٣٧) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٠ ٠

(٣٨) اللسان مادة رضى ص ١٦٦٤ ٠

وتهدأ النفس وبين علماء التفسير بعض النعم التى أعطاها الله لنبيه فى الدنيا والآخرة ليرضيه ويطمئنه يقول الزمخشرى ٠

موعد شامل لما أعطاه فى الدنيا من الفلح والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس فى الدين أفواجا والغلبة على قريظة والنضير واجلائهم وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب ومافتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن وما قذف فى قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب ولما ادخر له من الثواب الذى لا يعلم كنهه الا الله (٣٩) ٠

التقرير بالنعم :

فى قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » أول ما يطالعنا الاستفهام التقريرى فى قوله ألم يجدك ؟ والاجابة تكون ببلى أى بلى وجدك الله يتيما فآواك (المأوى) كل مكان يأوى اليه شىء ليلا أو نهارا ومأواه أى رثى له ورق (٤٠) وقال الزمخشرى - آوى - اللهم آونى الى ظل كرمك وعفوك وتقول أنا آوى الى ظلالك أويا وما لفلان امرأة تؤويه وقال ابن عباس للأنصار رضى الله عنهم بالايواء والنصر - ألا جلتم وأنتم مأوى المحاويج (٤١) والمعانى اللغوية توحى - الايواء الى ظل كرم الله بمعنى النصرة والنعمه والاطمئنان والأمان وتوحى كذلك بمعنى الرثاء للحال أى الاشفاف والحب والعطف والحنان - ولفلان امرأة تؤويه أى تقوم على شئونه وترعاه - كل هذه المعانى يشعر الله عز وجل نبيه بها فى الاستفهام التقريرى وبين ابن كثير أوجه ايواء الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال - ذلك أن أباه توفى وهو فى بطن أمه وقيل بعد أن ولد عليه السلام ثم توفيت أمه آمنه بنت وهب وله من العمر ست سنين ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب

---

(٣٩) الكشاف جـ ٢ ص ٥٤٩ ٠
(٤٠) مختار الصحاح مادة أوى ص ٣٤ ٠
(٤١) الأساس مادة أوى ص ١٣ ٠

الى أن توفى وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ـ هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ـ وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره الى أن توفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قومه وجهالهم فاختار الله له الهجرة بين أظهرهم الى بلد الأنصار من الأوس والخزرج فلما وصل اليهم آووه ونصروه وقاتلوا بين يديه (٤٢) فكلف بمن حاله هكذا بالنسبة لله حيث واه فى وقت الصغر وهو فى أشد الحاجة الى الايواء والنصرة ـ كيف يتركه بعد أن أوحى الله اليه وذلك التذكير بحالة اليتم وايواء الله له ليطمئن النبى صلى الله عليه وسلم فى حنان بالغ ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ـ وليس المقصود بالضلال ضلال الكفر وعبادة الأوثان لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط وانما على حد تعبير الزمخشرى ٠

ومن قال كان على أمر أمر قومه أربعين سنة فان أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم وان أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر وكفى بالنبى نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر (٤٣) وانما المقصود الحيرة التى كان عليها النبى صلى الله عليه وسلم من أمر قومه من حيث عبادتهم للأصنام ووأدهم البنات وأكلهم الربا وانتشار الدعارة بينهم والتفرقة العنصرية بين السادة والعبيد والحروب المستمرة لأتفه الأسباب (وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ويلتمس الهداية من الله الى أن سطع عليه نور الوحى فانتشله من هذا كله واختار له دينا قويما وعلمه كيف يرشد قومه)(٤٤) ٠

فكيف بعد أن هداك الله الى الحق والهدى ينساك ويتركك ويبغضك

---

(٤٢) ابن كثير جـ ٤ ص ٥٥٤ ٠

(٤٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٠ ٠

(٤٤) تفسير جزعم للشيخ محمد عبده ص ٨٥ ٠

لا لن يكـــون شيء من ذلك لأن الله كـــلأك على عينه وهداك بفضله ثـم بمرر الله عز وجل نبيه بالنعمة الثـــالثة وهى ووجدك عائـلا فأغنى - قال تعـالى « وان خفتم عيلة فسـوف يغنيكم الله من فضله » عال الرجل يعيل عيلة اذا افتقر قال أحيحة بن الجلاح :

فما يدرى الفقـير متى غناه ولا يدرى الغنى متى يعيـل

أى يفتقر وقال الأخفش ووجدك ذا عيال ومنه قول جرير :

الله نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل(٤٥)

وقال في تحفة الأريب روى عن الكسائي واللحيانى أن من العرب من يقول عال يعول اذا كثر عياله • ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتيما فقيرا فيسر الله له سبل الغنى حيث رزقه الزهد في الدنيا ويسر له أسباب العيش حين رقق الله له القلوب - قلب جده عبد المطلب وعمـه أبا طالب والسيدة خديجة وأغناه من التجارة وأعانه على رزق أولاده - فكيف من رعاه تلك الرعاية يتركه وينساه لا شك أن نعمة الله متصـلة وحبه دائم لنبيه صلى الله عليه وسلم •

المقابلة بين المعانى :

نوع من أنواع الطباق عرفها العلمـاء بقولهم هى أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل المعانى المتوافقة - والمقابلة فى السورة جاءت فى قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك عائلا فأغنى » قابلها بقوله « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » بين الزمخشرى لطف هذه المقابلة وشـفافيتها بقوله (والمعنى أنك كنت يتيما وضـالا وعائلا فآواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم وهـوانه ورأيت كيف فعل بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن

---

(٤٥) القرطبى جـ ١٠ ص ٧١٨٧ •

(٤٦) فيض الفتاح جـ ٤ ص ٢٦٦ •

بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر وحدث بنعمة الله كلها)(٤٧) وفى الحقيقة أنه لايعرف مرارة اليتم الا من عاش يتيما فقيرا فى طفولته لأنه فقد شيئين مهمين بهما قوام الحياة فقد الحنان والرعاية حين مات الأب وكانت الطامة الكبرى حين ماتت الأم لأن أشق وأصعب أنواع اليتم = يتيم الأبوين وتزداد المشقة والصعوبة اذا اجتمع معهما الفقر لذا نجد اليتيم الفقير حساس الى درجة متناهية ـ لذا يمس الله عز وجل قلب نبيه فيذكره بيتمه وفقره وكيف آواه الله وأغناه يذكره باليتيم والسائل فى ألفاظ رقيقة عذبة وبموعظة تلين لها القلوب ـ فأما اليتيم فلا تقهر ـ أى لا تذله وتنهره وتنهه ولكن أحسن اليه وتلطف به وكن لليتيم كالأب الرحيم(٤٨) ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يميل بكل جوارحه واحساساته الى اليتيم شفقة وعطفا وحبا وحنانا بدليل أن رجلا شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال له (ان أردت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين)(٤٩) وعمت القضية وشملت كل المسلمين حيث العطف على اليتيم والمحافظة على أمواله وتربيته ـ ألفاظ سالت دقة وعذوبة فتجاوبت القلوب معها حانيه صافية منفذة لأمر ربها ـ وأما السائل فلا تنهر « أى فلا تزجره فهو نهى عن اغلاظ القول ولكن رده ببذل يسير أو رد جميل واذكر فقرك » (٥٠) وفسره ابن كثير بقوله أى فلا تكن جبارا ولا متكبرا ولا فاحشا ولا فظا على الضعفاء من عباد الله ورد المسكين برحمة ولين وفى نهاية المطاف حدث بنعمة الله عليك .

وبعد : .....

اذا قرأ الانسان سورة الضحى يجد عتابا رقيقا بألفاظ رقيقة حانية لأن الموضوع يمس قلب النبى صلى الله عليه وسلم حين ظن أن الوحى انقطع عنه فوجد وحشة وغربة فكان فى شوق الى لقاء الله

---

(٤٧) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٠ .
(٤٨) ابن كثير جـ ٤ ص ٥٥٤ .
(٤٩) القرطبى ص ٧١٩٠ طبعة الشعب .
(٥٠) تفسير القرطبى ص ٧١٩١ .

بواسطة الوحى فجاءت الالفاظ توحى برقة الضحى وهدوء الليل واسباغ نعم الله عليه بأن آواه وأغناه ونصره وتعم النعمة لتشمل كل من كان فى مثل حالة النبى صلى الله عليه وسلم - اليتيم والسائل وتتسع أكثر لتصل الى حنايا القلوب بأن يتحدث الناس جميعا بنعمة الله عز وجل - وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ٠

جزالة الموضوع ورقته :

بين علماء العربية مواطن الجزالة والرقة ولكنهم جعلوها فى أغلب الأحيان خاصة بالألفاظ ويمكن أن نضيف أن للالفاظ الجزلة ايحاؤها وتأثيرها فى النفس وكذلك للالفاظ الرقيقة سحرها وعذوبتها ولكن الجزالة جزالة موضوع لاجزالة كلمة أو بيت أو آيه « فالذين يقفون عند الكلمة وحدها فى النص الأدبى أو يتجاوزونها الى البيت الواحد أو الآية المفردة يبترون السياق بترا كما نعرف أن التماسك الآثر لايكون بقوة الالفاظ وحدها بل بما تعبر عنه من مواقف قويه تتطلب التلاؤم بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون » (٥١) هذا المعنى لمسه القرطبى منذ زمن بعيد حين تحدث عن وجوه اعجاز القرآن الكريم فقال

ومنها الجزالة التى لاتصح من مخلوق بحال وتأمل ذلك فى سورة (ق) والقرآن المجيد - الى آخرها وقوله سبحانه والأرض جميعا قبضته يوم القيامة - الى آخر السورة - وكذلك قوله ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون - الى آخر السورة - قال ابن الحصار فمن علم أن الله - سبحانه وتعالى هو الحق علم أن مثل هذه الجزالة لاتصح فى خطاب غيره ولايصح من أعظم الملوك فى الدنيا أن يقول - لمن الملك اليوم ولا أن يقول - ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء (٥٢) تعليق القرطبى أكثر من مرة بقوله الى آخر السورة يبين أن الجزالة بجانب

---

(٥١) البيان القرآنى دكتور محمد رجب البيومى ص ٣٥ ٠
(٥٢) القرطبى ص ٦٤ طبعة الشعب ٠

كونها فى الكلمات الا أن الجزالة جزالة موضوع ـ والرقة كذلك بجانب كونها من الالفاظ الا أنها رقة موضوع ـ وطبيعة الموضوع هى التى تفرض رقة الالفاظ أو جزالتها ـ فاذا جاءت الألفاظ كالصاعقة المزمجرة والبحر الهائج والزلزال المدمر فان طبيعة الموضوع توحى بذلك واذا جاءت الألفاظ رقيقة كالنسيم عذبة عذوبة الماء صافية كالسماء حين تصفو دمثة دماثة أخلاق الأنبياء فان طبيعة الموضوع هى التى توحى بذلك ـ وسبحان الله تجاوزت الجزالة والرقة فى كل آيات القرآن وفى جميع سوره وهذا مالايستطيعه بشر ذلك لأنه ليس من صنع البشر ـ وأنى لهم ذلك ؟

وبعد .. ..

فان هذا بحث متواضع أحتسبه عند الله تعالى ـ حاولت فيه بقد جهدى الضعيف أن أكشف النقاب عن قضية الجزالة والرقة حيث حاولت تحديد أبعادها بقدر الامكان مستشهدا ومحللا لآيات من القرآن الكريم فان وفقت فمن الله وان قصرت فمن نفسى الضعيفة العاجزة .

هذا وبالله التوفيق ،،

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ أساس البلاغة للزمخشرى طبعة التنوير العربية بيروت .
٣ ـ أسباب النزول للسيوطى مكتبة نصير .
٤ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعى .
٥ ـ الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة البابى الحلبى .
٦ ـ البيان القرآنى دكتور محمد رجب البيومى مجمع البحوث الاسلامية
٧ ـ الصناعتين لأبى هلال العسكرى طبعة البابى الحلبى .
٨ ـ شرح المقدمة الأدبية للشيخ محمد الطاهر بن عاشور طبعة تونس الدار العربية .

٩ - الطراز ليحيى بن حمزة العلوى .
١٠ - العمدة لابن رشيق القيروانى طبعة بيروت .
١١ - الفوائد المشوق لابن القيم مكتبة المتنبى .
١٢ - الموشح للمرزبانى المكتبة السلفية .
١٣ - المثل السائر لضياء الدين بن الأثير المطبعة الميمنية
١٤ - النبأ العظيم الدكتور عبد الله دراز دار القلم .
١٥ - النقد الأدبى أصوله ومناهجه للشهيد سيد قطب طبعة دار الشروق
١٦ - النقد الأدبى عند العرب دكتور محمد حفنى شرف .
١٧ - تحرير التحبير ابن أبى الاصبع .
١٨ - تحفة الأريب لأبى حيان الأندلسى - المكتب الاسلامى .
١٩ - تفسير ابن كثير - مكتبة النهضة الحديثة .
٢٠ - تفسير الألوسى - احياء التراث العربى .
٢١ - تفسير البحر المحيط .
٢٢ - تفسير الجلالين - طبعة البابى الحلبى .
٢٣ - تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى طبعة دار الشعب .
٢٤ - تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده - دار الشعب .
٢٥ - تفسير الفخر الرازى .
٢٦ - تفسير القرطبى - طبعة دار الشعب .
٢٧ - تفسير الكشاف للزمخشرى - المطبعة البهية .
٢٨ - ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن طبعة دار المعارف .
٢٩ - حاشية الجمل على الجلالين طبعة دار احياء الكتب العربية .
٣٠ - زهر الآداب للحصرى .
٣١ - دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى طبعة البابى الحلبى .
٣٢ - فيض الفتاح مطبعة مدرسة والدة عباس الأول .
٣٣ - لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف .
٣٤ - مختار الصحاح للجوهرى طبعة - المطبعة الأميرية .